

أول كتاب
في نحو العربية

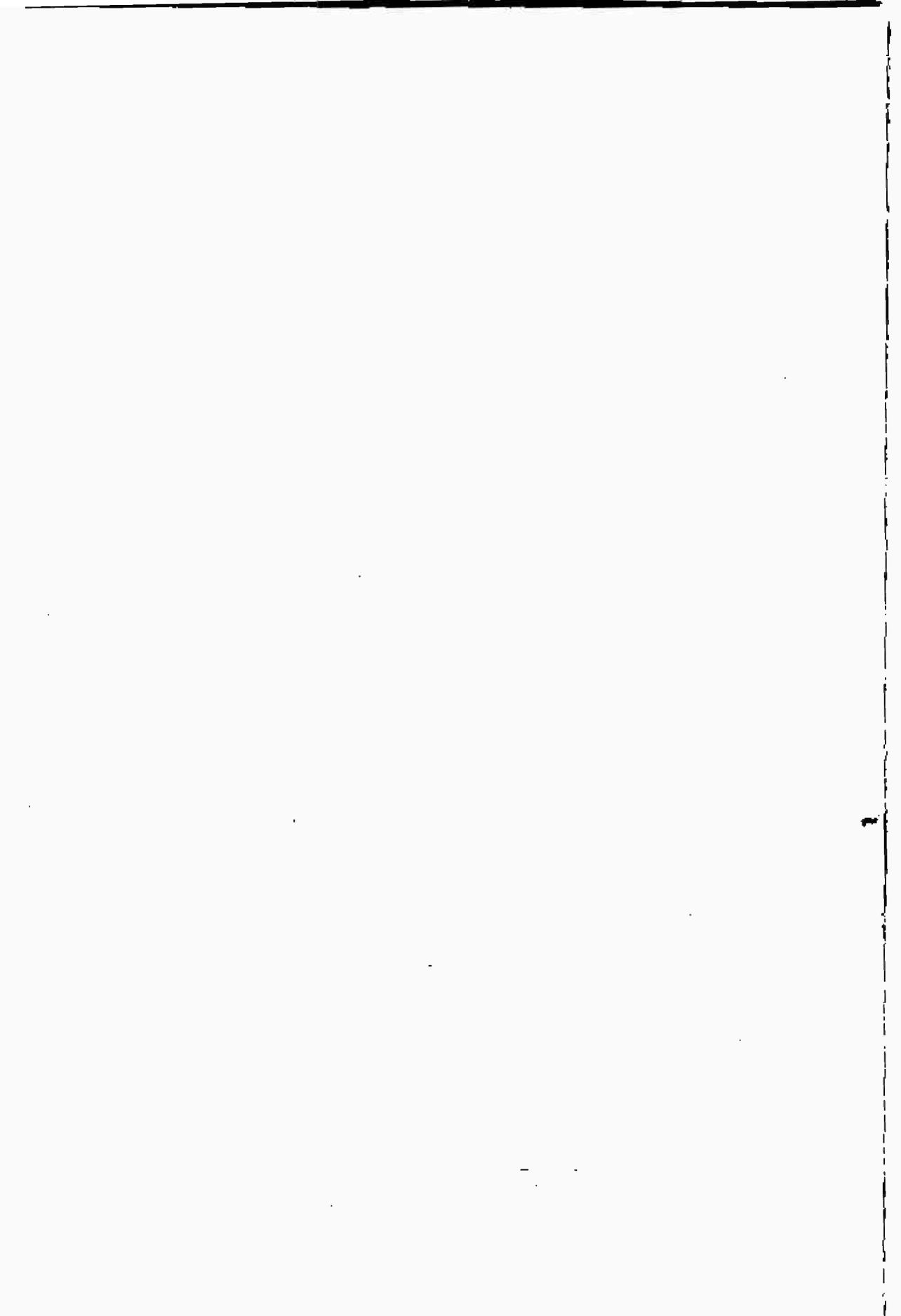
محاضرة الأستاذية

« ألقاها »

الدكتور حسن عوده

أستاذ كرسى العلوم اللغوية بجامعة الاسكندرية

[يونيو سنة ١٩٥٧]



إذا كانت قيمة الكتب تقاس بالزمن فإن الكتاب الذى هو موضوع حديثنا اليوم يعتبر الأول من نوعه ؛ وإذا كانت قيمتها تقاس بما فيها من غزارة فى المادة ، ومن سعة فى المعرفة ومن دقة فى التحليل مع استيعاب فى النظر ، ومن عمق فى التفكير مع إيضاح فى العرض فإن نفس الكتاب الذى نتحدث بشأنه الآن يعتبر أيضاً الأول من نوعه ؛ وإذا كانت قيمتها تقاس بما تحلته فى المجتمعات الإنسانية من ثورة عقلية ، أو بما يترتب على وجودها من انتقال المعارف من طور إلى طور آخر ، أو بما تشيره فى المجتمع من بحث ونقاش وجدل ، أو بما توحى به لدى العلماء ورجال الأدب من شروح ونقد وتعليقات فإن نفس الكتاب الذى تقدمه بين أيديكم اليوم ونحاول ، قدر المستطاع ، أن نرسم لكم خطوطه الرئيسية يعتبر أيضاً الأول من نوعه .

هذا الكتاب الذى يجمع كل ذلك ، بل وأكثر من ذلك ، والذى هو موضوع حديثنا الآن إنما هو كتاب سيوبه .

لسنا نعرف بالضبط ، تاريخ البدء فى تأليف هذا الكتاب ، كما لا نعرف كذلك تاريخ الفراغ من تأليفه ؛ فالروايات فى ذلك متناقضة متباينة ، وليس هناك من دليل مادى أو وثيقة تاريخية يمكن الاعتماد عليها اعتماداً يقينياً ؛ غير أن أشهر الروايات وأولها بالاعتبار هى تلك التى تقول بأن الفراغ من تأليفه كان قبيل وفاة سيوبه ؛ وذلك استناداً إلى ما هو معروف من أن سيوبه قد توفى قبل أن يتمكن من قراءة كتابه على الناس ، وقبل أن يتمكن الناس من قراءته على مؤلفه ، شأن ما كان متبعاً عند العلماء فى ذلك العصر . ووفاة سيوبه على أرجح الأقوال كانت فى نحو الثمانين بعد المائة من الهجرة ، أى فى أواخر القرن الثامن الميلادى . وظل هذا الكتاب عند الخاصة من الناس يدرسه دراسة شخصية ، ويحرصون عليه أشد الحرص ، ويستسخون منه عدة نسخ تنتقل من بيت إلى آخر ومن مكتبة إلى أخرى حتى جاء عصر أبى الحسن الأخفش فكان أول

من تصدى من العلماء لقراءة هذا الكتاب على الناس ، ومن هنا استحق أن يلقب بالوارث لعلم سيبويه ؛ وقد توفي أبو الحسن هذا في سنة ٣١١ هجرية .

وتعددت النسخ المخطوطة من هذا الكتاب ، وأخذت تتبادلها أيدي العلماء والمهتمين بالدراسات اللغوية لا من أسرة الى أخرى فحسب بل من بلد إلى آخر ؛ فانتقلت نسخ منه إلى الشام ، وأخرى إلى مصر ، كما انتقلت نسخ منه إلى بلاد المغرب ، وأخرى إلى الأندلس . ونستطيع أن نقف على أصداء ذلك كله فيما ألفه علماء اللغة والنحو في هذه البلاد جميعاً .

ومنذ أخذت بوادر الانحلال السياسي في البلاد العربية تظهر في العصور الوسطى نال هذا الكتاب ما نال غيره من آثار الحضارة العربية ؛ فضع كثير من نسخته ، وبقي بعضها جيباً في دور الكتب ولدى قلة من العلماء ؛ وأصبحت جمهرة الدارسين لا ترى نسخ هذا الكتاب ، ولا تعرف من شأنه سوى ما تنقله الكتب عنه ، وترويه من شواهد وآرائه .

وفي أواخر القرن التاسع عشر ألفت النهضة الحديثة قبلاً من أضوائها على هذا الكتاب فبحث عنه العلماء حتى اهتموا إلى أماكن وجزده ، وأعطوه جانباً من العناية فنشر وطبع في بلاد مختلفة : طبع في باريس خلال سبع سنوات ، أي ما بين سنة ١٨٨٣ م وسنة ١٨٨٩ م^(١) ؛ وطبع في كلكتة سنة ١٨٨٧ م ؛ وطبع في مصر سنة ١٨٩٦ م ؛ ثم نقل^(٢) إلى الألمانية وطبع في برلين ما بين سنة ١٨٩٤ ، سنة ١٨٩٨ م .

ولم نقف حتى الآن على كتاب آخر في نحو العربية أسبق من كتاب سيبويه بالرغم من الروايات التي تحاول اثبات مؤلف في النحو

(١) كان هذا الطبع بعناية المستشرق ديرليبورج .

(٢) كان هذا النقل بواسطة الدكتور يامين .

لأبي الأسود الدؤلي ،^(١) ومؤلفين آخرين لعيسى بن عمر الثقفي ،^(٢) وهما الجامع والأكمال ، كما لم نقف أيضا حتى الآن على كتاب آخر في نحو العربية أوفى من كتاب سيويه .

وظروف تأليف هذا الكتاب تثير في نفس الباحث كثيرا من التقدير ، ولكنه تقدير تصحبه الحيرة والعجب فقد ألف هذا الكتاب الضخم ولم يمض على أوليات التفكير في الأبحاث العلمية واللغوية عند العرب أكثر من مائة سنة ؛ وقرن من الزمن ضئيل جدا في حياة العلوم . وربما تزداد حيرتنا ويتضاعف عجبنا إذا ما قورنت ظروف تأليف كتاب سيويه بظروف تأليف أمثاله من الكتب اللغوية الأخرى عند الشعوب المتقفة ، التي أخذت من الحضارة الإنسانية ، ومن الرق العقلي ، يحظ وفيه : بلغت اللغة اليونانية أرقى درجاتها من النمو والكمال حوالي القرن العاشر قبل الميلاد ؛ وكانت أوائل الأبحاث اللغوية فيها خلال القرن الخامس قبل الميلاد ؛ إذ نشأت على أيدي السوفسطائيين أمثال بروديكومس ، وبروتاغوراس . ولكن هذه الأبحاث في نشأتها لم تكن تتجاوز أكثر من إشارات عابرة عن بعض الموضوعات العامة كالتذكير والتأنيث ، وكالأفراد والجمع . وفي خلال القرن الرابع قبل الميلاد اتجه أرسطو [من سنة ٣٨٤ إلى ٣٢٢ ق . م] ، بجانب غمرة الفلسفة ، إلى الأبحاث اللغوية لأيمانه بأن إصلاح الأحكام العقلية متصل اتصالا وثيقا بإصلاح أداة التعبير وأن سلامة أحدهما متوقفة على سلامة الآخر ، فتعهد هذه المحاولات السوفسطائية بشيء من الرعاية ، وبذل لها جانبا غير يسير من جهده الفكري ؛ ولكن أمحائه في هذا الميدان كانت بدورها تخبئ في كثير من الأحيان عفوا وفي ثنايا آثاره الفلسفية والأدبية . واستمرت هذه المحاولات اللغوية أو النحوية تسير من عالم إلى آخر ، ومن مدرسة إلى أخرى حتى القرن الثاني بعد الميلاد ، حيث تعاون عدد كبير من علماء اليونانيين خلال هذه القرون العديدة في النهوض بتلك

(١) الفهرست لابن التميمي ص ٦١

(٢) نفس المرجع السابق .

الأبحاث. ولقد رأينا بعض هؤلاء العلماء ، أثناء هذه الفترة الزمنية الطويلة ،
يفرد كل واحد منهم ببحث مسألة من المسائل النحوية أو اللغوية تعرف
باسمها ، وتتميز بطابعه . ومن هذا الشتات تكونت قواعد اللغة اليونانية .
فنجد مثلا - اريستوفان البيزنطي - (١) يضع في أوائل القرن الثاني
قبل الميلاد قاعدة القياس في اللغة ؛ ثم نجد من بعده وفي نفس العصر أيضا
- أريستارك - الذي يتضح حياته في تهذيب قاعدة انقياس اللغوي ،
التي أسسها - اريستوفان - ؛ ونجد كذلك في نفس العصر - كراتيس -
الذي يتخصص في وضع وتهذيب قاعدة الشواذ في اللغة .

وتستمر هذه الأبحاث تنمو مع الزمن ، ويقترّب بعضها من بعض
حتى يجيء العالم اللغوي الكبير - أبو اللويوس - وابنه هيروديان -
من بعده (٢) فتجتمع الأبحاث اللغوية على أيديهما في كتاب واحد ؛ وذلك
في خلال القرن الثاني بعد الميلاد . ومع ذلك فبعيد جدا أن يقارن
هذا الكتاب ، الذي يعتبر نتيجة مجهود متواصل لعهد كبير من العلماء
في خلال ما يزيد عن مبعائة سنة ، بكتاب سيويه . أما اللغة اللاتينية فهي
بالنسبة لنشأة الأبحاث اللغوية فيها ، وبالنسبة لتطور هذه الأبحاث ونموها
تعتبر أقل من ذلك بكثير ، ولا سبيل مطلقا إلى مقارنتها بما حدث في اللغة
اليونانية فضلا عما حدث في اللغة العربية .

ويضاف إلى قائمة هذه الاعتبارات اعتبار آخر ليس من السهل
أن نغمض العين عنه أو ألا ندخله في حسابنا ؛ ذلك أن سيويه ، كما يبدو ،
لم يكن راضيا تمام الرضا عن صنيعه في هذا الكتاب بالرغم مما فيه
من غزارة المادة ، وشمول النظر ، وبالرغم كذلك مما ظهر له من مكانة

(١) تولد اريستوفان البيزنطي الاشراف على مكتبة جامعة الإسكندرية القديمة وهو
في الثانية والثين من عمره ؛ وكان ذلك في أوائل القرن الثاني قبل الميلاد .

(٢) أنظر تاريخ الأدب اليوناني لمولفييه ؛ الفريد كروازيه وموريس كروازيه ص ٧٧٦
وما بعدها طبعة سبتمبر سنة ١٩٠٠ .
Voir : Histoire de La littérature grecque par Alfred Croiset et Maurice Croiset : page 776 et suivant. Septembre 1900 .

رفيعة في نفس العلماء . وكأنه كان يلح فيه نقصا ، ويود أن يضيف إليه ، ويهذب فيه ، ويفصل القول في أبوابه حتى يصل به إلى الدرجة التي يرضى فيها عن نفسه ، ويتمناها لكتابه . ولنا على ذلك بعض الأدلة :

(أولا) خلو الكتاب من مقدمة تمهد له وتشرح أهدافه .

(ثانيا) خلوه من خاتمة توجز آراءه ، وتعرض النتائج التي وصل إليها .

(ثالثا) وجود بعض العناوين التي تحتاج إلى شيء من الصقل والتغيير لكي تنطبق تماما على المادة العلمية التي ذكرت تحتها .

(رابعا) اهمال السند لبعض الشواهد والآراء ، بينما يزداد الحرص بالنسبة للبعض الآخر في حين أنه لو عكس لكان الخطب أيسر .

(خامسا) وجود ما يشبه الخلط في ترتيب أبوابه ؛ مثال ذلك حديث سيبويه عن القسم وحروفه بين حديثه عن التصغير من ناحية ، وحديثه عن نوني التوكيد من ناحية أخرى ؛ وهذان البحثان في الجزء الخاص بالأبحاث الصرفية ، التي لا علاقة لها مطلقا بالقسم ولا بحروفه ؛ وكان الأولى أن يوضع بحث القسم ضمن الأبحاث النحوية ، التي تستغرق الجزء الأول من هذا الكتاب .

(سادسا) وجود ما يشبه التكرار ؛ مثال ذلك ما تجده في الباب الثالث من الجزء الأول حيث يتحدث عن المسند والمسند إليه فيذكر المتبدا والخبر وما يتصل بهما من أحكام ، ويورد مجموعة من الأمثلة والشواهد على ذلك ؛ ثم نمضى معه قدما في الأبواب الأخرى حتى نصل إلى الباب الثاني والثلاثين بعد المائة من نفس الجزء فنجد بابا آخر تحت عنوان « الابتداء » ؛ وهنا يكاد يعيد سيبويه ما ذكره مطلقا عن المتبدا والخبر وما يتصل بهما من أحكام ؛ وكأنه نسى ما ذكره في الباب الثالث خاصا بالمتبدا والخبر .

وما لنا نذهب بعيدا مثلسين الأدلة من محتويات هذه الأبحاث وقد ترك سيبويه هذه الأبحاث في شكل مودات دون أن يعنون لها ، أو يضع لهذا الكتاب اسما يشير إليها ، أو يدل عليها ؟

ولنا أن تتساءل بعد ذلك ، ماذا كان يمكن أن يصل إليه هذا الكتاب لو أتيتحت الفرصة لسيبويه فوضعه في الصورة التي ترضى عنها نفسه ، وهو ، كما نعرف ، لا يزال يعتبر في نظر علماء الشرق أجل سفر في الأبحاث اللغوية جميعا ، كما يعتبر في نظر علماء الغرب أيضا أوفى كتاب في النحو على الإطلاق ؟

ويكاد هذا يعيد إلى ذاكرتنا ما حدث لفرجيل ، شاعر اللاتينية الكبير ، في أواخر القرن الأول قبل الميلاد^(١) ؛ فقد طلب وهو على سرر الموت أن تجمع له مسودات ديوانه ، الإيناده ، ثم أبدى رغبته في أن تحرق لأنه لم يستطع أن يهذبها ، ويصقلها ، ويضعها في الصورة الكاملة التي كان يتمناها ؛ وحينها لم يمكن من ذلك أمام عينيه أوصى بأحراقها بعد موته ؛ ولكن أوغسطس رفض أن ينفذ هذه الوصية ؛ وبدل أن يعدمها أوصى هو من جانبه أن تجمع وتنتشر كما هي بالرغم من وجود سبعة وخمسين بيتا من الشعر لم يكمل نظمها بعد ؛ ومع ذلك فلا يزال هذا الديوان يعتبر أجل أثر في الأدب اللاتيني حتى اليوم^(٢) .

إننا حينما قلنا منذ قليل إن كتاب سيبويه يعتبر أجل سفر في الأبحاث اللغوية لم نكن متحيزين لهذا الكتاب ، ولا متجنبين على الحقيقة ، فهو في الواقع موسوعة هائلة لكل المعارف التي تتصل باللغة كوسيلة للفهم وأداة للتعبير ، وسجل حافل بكل ما كان يدور في ذلك العصر من أبحاث ودراسات ، وصورة صادقة للحياة العقلية التي امتزجت فيها عناصر متعددة متباينة من سائر الأجناس ومن سائر الثقافات .

(١) ولا فيرجيل في سنة ٧٠ ق.م ؛ وفي سنة ١٩ ق.م فقد رغبته القديمة في زيارة اشرق ، اليونان وآسيا ، وحينما وصل الى - سيقارا ، مدينة يونانية قرب بوغاز - كوراثيا - أصيب بضربة شمس عاد انزها الى ايطاليا ولم يكده يصل الى - برانديزي - حتى اشتدت عليه وطأة المرض فات هناك في نفس السنة .

(٢) Voir ; Histoire de la littérature latine par J. Humbert : page 176 —

202. Paris 1935

إننا نظلم هذا الكتاب حينما نعتبره كتاباً في النحو فقط ، كما أننا نظلم النحو نفسه حينما نفهمه بذلك المعنى الضيق الذي يتعارف عليه الناس في عصرنا هذا ، ونصوره بتلك الصورة المشوهة الجافة التي تخيف الطلاب وتنفرد الدارسين ؛ تلك الصورة التي بدأت تمثل في الأذهان ، وتدور في خلد المثقفين منذ أخذت تنفصل علوم اللغة بعضها عن بعض ، ويتخصص في كل علم فريق من العلماء يدرسون مسأله ، ويستنبطون مافيه من ضوابط وقواعد .

كتاب سيويه إذن يمثل النحو في شيابه الزاهر ، وبرويه لنا في صورة الخصلة الأولى ؛ فهو يضم إلى جانب النحو كل ماله صلة باللغة ؛ ففيه أبحاث في الأصوات وفي طبيعتها ، وفيه أبحاث في الصرف وفي الاشتقاق ، وفيه أبحاث في المعاني والبيان والبديع ، وفيه أبحاث في الأدب وفي النقد الأدبي ، وفيه أبحاث في الرواية والسند ، وفيه أبحاث في القراءات وفي التجويد ، وفيه أبحاث في فقه اللغة ، وفيه أبحاث في موسيقى اللغة وفي العروض ، وفيه أبحاث في لهجات العرب وما يترتب على اختلافها من مذاهب وآراء .

كتاب سيويه إذن أشبه شئاً بالنوع الغزير ، وكل ما نشأ من حوله ومن بعده من علوم لغوية يشبه الروافد التي تستمد منه مياهاها لتسير فيما رسمه لها العلماء من اتجاهات ؛ فهو مستودع كبير للتراكيب العربية ، والاصطلاحات اللغوية ، والشواهد الأدبية ، وكثر عظيم للأمثلة النحوية والصرفية يجده فيه علماء النحو والصرف قديماً وحديثاً ما هم في حاجة إليه لشرح قواعدهم ، والاستدلال على ما يقررون .

واليكم الآن بعض التفاصيل التي تصور جانباً من ثروة هذا الكتاب العلمية ، والتي تلقى في نفس الوقت ضوءاً على هذه الأحكام المجملة العامية التي ذكرناها ؛ وعليكم أنتم بعد ذلك تقدير ما يمتاز به هذا الكتاب ، وما يستحقه من مكانة بين سائر الكتب اللغوية الأخرى .

هناك ثمانمائة وثمانية وخمسون رأياً لأئمة النحاة السابقين أمثال الخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وأبو الخطاب الأخرس ، وأبو عمرو بن العلاء ،

وعيسى بن عمر الثقفي ، وأبو زيد الأنصاري . وهذه ، كما نرى ، ثروة علمية لا توجد في أي كتاب آخر ، ومادة خصبة للدارسين من طلاب الماجستير والدكتوراه .

وهناك ألف وخمسون بيتا من الشعر العربي الصحيح ، وذلك وفق إحصائية قام بها الجرمي . غير أن الإحصائية الأخيرة في طبعة الكتاب الأوروبية تبين أن الشواهد الشعرية تبلغ ألفا وواحدا وستين بيتا من الشعر العربي ، لم يشك عالم في صحتها ، كما لم يتردد نحوي في الاستشهاد بها ، وهذه بدورها تعتبر مادة غزيرة لدارسي الأدب العربي القديم ، وما يصوره ذلك الأدب من حياة اجتماعية جاهلية .

وهناك ثلاثمائة وأربع وسبعون آية قرآنية بصور اختيارها في مواطنها من الكتاب ما كان يلزم سيويه من التوفيق العجيب في ضرب الأمثال وبراعة الاستشهاد .

وهناك بعد ذلك عدد لا يكاد يحصى من الأمثلة التي اصطنعها سيويه لنفسه كي يشرح بها قواعده أو يقيسها على غيرها من الشواهد العربية ؛ ومنستطيع أن نجد صدى ذلك كله ممثلا تمثيلا كاملا في كتب النحو والصرف والبلاغة التي الفت من بعده .

وهناك مسألة أخيرة ، ولكنها جديرة بالنظر ، قد أثارنا كثيرا من الجدل بين العلماء والباحثين ؛ ذلك أن الكتاب على غزارة مادته ، وكثرة ما فيه من شواهد وأمثلة لم يستشهد بمحدث واحد من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فكيف أغفل سيويه هذا الميدان الواسع من ميادين اللغة ؟ وما هي الأسباب التي دعت به إلى أن يهمل الاستشهاد بالأحاديث فلم يكن موقفه منها كموقفه من الشعر العربي والآيات القرآنية ؟

وما يدل على أن سيويه كان يصر على هذا ، ويتبع فيه منهجا واضحا وخطة مرسومة هو أنه أعاد الاستشهاد بما يقرب من خمسين آية قرآنية في مواضع مختلفة من الكتاب ؛ ولم يكتف في كثير من الأحيان بالاعادة

مرة واحدة أو مرتين اثنتين ، بل أعاد بعضها ثلث مرات وأربع مرات ، ومع ذلك لم يخطر بباله أن يعرج مرة واحدة على الأحاديث ليستشهد بواحد منها .

تفسر هذه الظاهرة ، كما نتصور ، هو أن سيويه لم يكن كبير الثقة في رواية المحدثين ، كما كان عظيم الثقة في رواية الشعر وفي الآيات القرآنية من حيث الدقة والعناية بالنص ؛ إذ أن للشعر من الموسيقى اللفظية ما يعين على حفظه مضبوطا ، وللقرآن كذلك من العناية الفائقة والاهتمام الزائد ما لم يسمح بتسرب أدنى شك إلى ضبطه . أما الحديث فلم يتوفر له مثل ذلك ؛ يضاف إلى هذا أن الرواية بالمعنى قد صححت فيه ، واستساغها كثير من العلماء ولكي يجنب سيويه كتابه ذلك الجدل الذي لا طائل تحته نعتقد أنه اكتفى بالاستشهاد من الشعر العربي ، ومن الآيات القرآنية . وفي ذلك دليل بين على مبلغ ما كان يلزم سيويه من الدقة ، والتحرى ، والبعد عن مواطن الرية العلمية .

ولو أننا أخذنا بعين الاعتبار ما في هذا الكتاب من مادة غزيرة واسعة ، ومن نظرات عميقة فاحصة ، ومن إحاطة شاملة لكل الأبحاث اللغوية التي تشمل اللفظ والمعنى بأوسع ما يتصور منهما كان من السهل علينا أن نترك مبلغ الجهد الذي بذله سيويه في استقصاء مادة كتابه وجمعها ، ومقدار الوقت الذي قضاه في تصنيف هذه المادة وتهذيبها ، ولقد كان ذلك كله مدعاة لأن يشك فريق من الناس^(١) في أن هذا الكتاب من عمل سيويه وحده ، ومن نتيجة مجهوده الخاص ؛ حتى لقد ذهب الغلو ببعض هؤلاء الناس إلى حد القول بأن مجهود سيويه في هذا الكتاب يعتبر أقل من مجهود أي فرد آخر من العلماء المعاصرين أو السابقين الذين تعاونوا في تأليفه .

لم يكده يعرف كتاب سيويه بعد وفاته حتى أخذ الناس يجدلون في البحث عنه في كل مكان . وانكب عليه العلماء يدرسون مسائله ويتفهمون أبوابه

(١) أنظر « أخبار سيويه » في الفهرست لابن النديم ص ٧٦ ؛ وأنظر كذلك « سيويه

امام النجاشي » للأستاذ علي النجدي ناصف ص ١٢٨

وأنصولة ، ويشرحون شواهده وأمثله ، ويتنبطون قواعده وأحكامه ؛ ولم يمض وقت طويل حتى أصبح هذا الكتاب مشاعا بين العلماء جميعا ، ومرجعا لكل المدارس في البلاد الإسلامية شرقا وغربا . ذاع اسم الكتاب إذن في جميع الأقطار التي لها صلة بالحضارة العربية ، وارتفعت بواسطته مكانة البصرة من بين سائر العواصم العلمية إذ ذاك .

وإذا كانت الكوفة أقل هذه العواصم اهتماما بخدمة كتاب سيويه ، والتأليف حول موضوعاته ، فإن ذلك لما هو معروف من المنافسة العلمية الشديدة بين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ؛ وآية ذلك ما حدث بين سيويه والكاشي من مناظرة نحوية في بغداد على يد يحيى بن خالد البرمكي في مسألة «العقرب»^(١) المعروفة عند علماء النحو واللغة على السواء . وعجيب أننا لم نجد فيما اطلعنا ، بحثا واحدا أنه نحويو الكوفة حول كتاب سيويه ، ومع ذلك فما لا شك فيه أن الكوفيين قد استخدموه بعد أن حصلوا عليه ، واستنسخوا منه عدة نسخ ، وانتفعوا بما فيه من معارف أجل انتفاع .

وهذا السبب نفسه يوضح لنا كيف كان أشد النقد الذي يوجه إلى الكتاب وإلى صاحبه صادرا عن الكوفيين .

ولقد حاولنا عمل احصائية في المراجع العربية الأصيلة لمشاهير العلماء الذين اهتموا اهتماما خاصا بكتاب سيويه فدرسوه دراسة مستفيضة ، وفهموا مسائله فهما عميقا ، وفتنوا بما فيه من معارف ، ثم كتبوا عنه شارحين لتوضيحه تارة ، ومعلقين عليها تارة أخرى ، ومستنبطين لما فيه من قواعد طورا ، وملخصين لتلك القواعد طورا آخر ، فوجدنا أن عدد أولئك العلماء يقرب من المائة في سائر الأقطار العربية المختلفة . ولعل أهم هذه الأقطار هي بيئة الأندلس والمغرب الأقصى ؛ إذ وجد هناك ما يزيد على الأربعين عالما .

(١) وردت قصة هذه المناظرة في مراجع عديدة منها طبقات الزبيدي ص ٤٩ ، ٤١ ، والجاه الرواهج ٢ . ص ٣٤٨ ، وقاربخ بغداد ج ١٢ . ص ١٩٨ ، والفهرست لابن النديم ص ٧٦ ، ٧٧ . والنقصة معروفة متداولة مشهورة ؛ وقد جمع شتاها ولخصها وعلق عليها صاحب كتاب «سيويه امام النعماء» المتقدم ذكره ص ١٠٠ - ١٠٨ .

على أن من بين هؤلاء العلماء من لم يكتب بتأليف كتاب واحد في نفس الموضوع ، بل تجاوز ذلك إلى جمع من الكتب كلها تدور حول كتاب سيويه لتوضيح ما غمض فيه ، وشرح ما أغلق فهمه منه . ولنضرب لذلك مثلا المبرد^(١) ، الذي بدأ قراءة كتاب سيويه قراءة علمية على الجري ، ثم ختمه على المازني . وبعد أن حلل أحكامه ، وألم بمسائله ، وأحاط بما فيه اتخذ موضوعا لأبحاثه وتأليفاته ، فألف خمسة كتب مختلفة هي : كتاب المدخل إلى سيويه ، كتاب الرد على سيويه ، كتاب الزيادة المنتزعة من سيويه ، كتاب شرح شواهد كتاب سيويه ، وأخيرا كتاب معنى كتاب سيويه ، ونجد كذلك محمد بن علي بن اسماعيل المكنى بأبي بكر ، وهو من أهل العسكر ، يؤلف كتابين في نفس الموضوع . أحدهما شرح كتاب سيويه ، والثاني شرح شواهد كتاب سيويه^(٢) .

وهناك أيضا أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبدالله النحوي ، الذي ألف بدوره ثلاثة كتب حول كتاب سيويه ، ثم كتابا رابعا خصصه لشرح كتاب المدخل إلى سيويه ، الذي ألفه المبرد ، والذي ذكرناه منذ قليل . وهاهي ذى كتبه الأربعة^(٣) : كتاب شرح سيويه ، كتاب أغراض كتاب سيويه ، كتاب المسائل المفردة من كتاب سيويه ، وأخيرا كتاب شرح المدخل للمبرد .

من ذلك نرى ، من ناحية ، مبلغ اهتمام العلماء بكتاب سيويه ، وحرصهم على ما فيه من مادة علمية ، ومن ناحية أخرى ، مدى ما أحدثه هذا الكتاب من ثورة عقلية في مختلف البلاد الإسلامية .

والظاهرة العجيبة هنا ، والجديرة منا بالنظر والاهتمام هي أن أكثر من تسعين في المائة من العلماء الذين درسوا كتاب سيويه ، واهتموا

(١) الفهرست لابن النديم ص ٨٧ - ٨٨

(٢) الفهرست ص ٨٩

(٣) الفهرست ص ٩٤ - ٩٥

بالتأليف حول مشاكله وموضوعاته ، كانوا ، كما يتضح من موقفهم ، يعتقدون أن النحو قد انتهى إلى سيبويه ، وأنهم في شبه يأس من أن يأتوا بجديد فيه بعد كتاب سيبويه ، فانصرفوا الى تفسير غريبه ، وشرح شواهد واملته ، والتعليق على ما فيه من معارف وأحكام . ولقد استطعنا أن نحصى في خلال نحو قرن من الزمن بعد وفاة سيبويه ما يزيد على العشرين كتابا كلها تعالج كتاب سيبويه (١) ، ومعنى هذا أنه في خلال القرن التالي مباشرة لظهور كتاب سيبويه كان يظهر في أفق الثقافة العربية بمعدل كل خمس سنوات فقط كتاب كبير يتناول ناحية من نواحي كتاب سيبويه .

ولقد بلغ حرص هؤلاء العلماء على كتاب سيبويه ، وتمسكهم بمبادئه وأحكامه درجة لا يكاد يتصورها من لم يكن ملما بنواحي الثقافة العربية . وعلى الخصوص يبلغ الجهد العنيف الذي بذله العلماء في الأبحاث النحوية منها ، فقد اندفع هذا البعض إلى حفظ نص الكتاب عن ظهر قلب ، كما كانوا يحفظون نصوص القرآن سواء بسواء ؛ وهذا ، كما نعلم ، صعب المثال ؛ إذ أن الكتاب يحتوي على سبعمائة وعشرين فصلا قد سجلت في ألف صفحة من القطع الكبير .

ولم نجد حتى الآن ، فيما درسناه واطلعنا عليه من آثار عقلية أو فكرية في الحضارات المختلفة شرقية كانت أم غربية ، قديمة كانت أم حديثة ، كتابا قد حظي بمثل ذلك من العناية والاهتمام ، والحفظ عن ظهر قلب - وهذا بطبيعة الحال فيما عدا الكتب السماوية - سوى كتابين اثنين : أحدهما الأبيداه للشاعر اللاتيني فيرجيل ؛ والثاني كتاب سيبويه .

وهناك ، حتى في هذا التشابه ، ما يميز كتاب سيبويه ويرفع من شأنه ؛ إذ أن مصدر العناية بين الكتابين مختلف تمام الاختلاف ؛ فقد بدأت العناية

(١) كان أساسا في هذه الإحصائية كتب طبقات النحاة العديدة المختلفة كنية الرواة ، وكشف الظنون ، وأنباء الرواة ، وعلى الخصوص كتاب الفهرست لابن اندلس حيث كتب فصلا هائلا عن النحو ومن وضع فيه ، من ص ٦٠ إلى ٨٩ ثم تبعه بفصل آخر عن العلماء البصريين من ص ٨٩ إلى ٩٥

بكتاب فيرجيل متأخرة في خلال العصور الوسطى ؛ وذلك حينما فهم بعض المسيحيين من إشارة وردت فيه النبؤ بمولد المسيح عليه السلام . ومنذ ذلك التاريخ حظى هذا الديوان من الشعر بشيء من القدامه ، وانكب عليه رجال الأدب بوحى من أئمة الدين يحفظون نصوصه ، ويوصون الدارسين بحفظها .

أما كتاب سيويه فقد بدأت العناية به ميكرة ، ولم يكن لهذه العناية من أسباب سوى ما فيه من مادة علمية غزيرة ، وما يحققه للدارسين من نفع عظيم .

وطريقة سيويه في عرض مادته طريقة أولية بسيطة تنمشي مع طبيعة العلوم في نشأتها ، وحالة التأليف في أولياته . ولكنها مع هذه البساطة أو السذاجة يكاد المرء ، حين يفكر فيها قليلا ، يلمح من خلالها معالم طرق التربية الحديثة في التعليم ؛ فهو لا يعرض على الطلاب الأحكام اللغوية المجردة ولا القواعد النحوية المطلقة ، فيضيف بذلك إلى صعوبة المادة اللغوية

صعوبة أخرى أشبه بصعوبة الفلسفة حين تتعرض للبحث في التجريد والمجردات ؛ ولكنه يعرض المادة اللغوية أولا عرضا واقيا ، ثم يناقشها من نواحيها اللغوية مناقشة هادئة تشبه ما كان يصنعه فلاسفة الأغريق القدماء في تعليمهم حينما يتهجون منهج الحوار ؛ فتراه إذن يعرض مجموعة كبيرة من الأمثلة ، والشواهد كنماذج لغوية ثم يشرح معناها ، ويفصل القول فيها محملا أصل تركيبها وكاشفا عما يرى إليه من وراء ذكرها ، وأخيرا يصل بالقارئ حينما إلى استنباط القواعد وذكر الأحكام ، وحينما آخر يكتب بأن يهني له الطريق ، ويمده بوسائل الاستنتاج ، ثم يترك له الفرصة بعد ذلك لكي يستنبط هو ما يمكن استنباطه من ضوابط وأحكام وقوانين . وربما زاه في بعض الأحيان يلجأ إلى طريقة أخرى ، ولكنها من نفس المنهج ؛ فبدل أن يبدأ بالتفصيل في ذكر الأمثلة والشواهد ثم ينتهي بالأجمال في استنتاج الأحكام والقواعد ؛ نجد أنه يبدأ بالأجمال فيذكر أقسام الباب أولا ، ثم ينتهي بالتفصيل حيث يذكر الأمثلة ويتناولها بالشرح والتعليق .

ويبدو لنا ، ونحن نقرأ بأمعان كتاب سيويه ، ونستعرض طرقة ومناهجه في التعليم ، أن النحو في دراسته لكي يخرج من هذا الأطار التجويدى البغيض ، ولكي يدرس في هذا العصر الدراسة المثمرة ، ينبغي ، وليس في ذلك من عيب ، أن نعود به إلى الوراء ونطبق ، من حيث المبادئ العامة فقط ، نفس الطريقة التي استعمالها كتاب سيويه ؛ إذ أن الأبحاث اللغوية لا بد لها أولاً من المادة اللغوية الصحيحة ، كما أن النحو لا بد له من أن يتناول تركيب الجملة بأسرها ، لا أن يقف عند النظر في أواخر الكلمات فقط .

وتعالوا بنا الآن نستعرض سوياً بعض نصوص من هذا الكتاب لكي نرى مما قليلاً من النماذج التي تلقى ضوءاً على منهج سيويه ، ولكي تكون لدينا بعد ذلك صورة حية عن هذه الأفكار والمعاني التي ذكرناها بصدده منذ قليل :

يقول سيويه في الباب السادس من الجزء الأول : « هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة » - فهـ مستقيم حسن ، وعحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وما هو محال كذب . فأما المستقيم فقولك أتيتك أمس وسأتيك غداً ؛ وأما المحال فإن تنقض أول كلامك بآخره فتقول أتيتك غداً وسأتيك أمس ؛ وأما المستقيم الكذب فقولك حملت الجبل وشربت ماء البحر ونحوه ؛ وأما المستقيم القبيح فإن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك قد زيداً رأيت ، وكى زيد يأتيك وأشباه هذا ؛ وأما المحال الكذب فإن تقول سوف أشرب ماء البحر أمس .

ويلاحظ القارئ هذه الفقرات أن الصلة تكاد تكون مفقودة بين ما جاء في هذا الباب من كتاب سيويه وبين ما هو متعارف عليه من الموضوعات النحوية التي تدرس في كتب النحو الآن ؛ فقد عرفنا ولا يزال نسمع من كثير من النحاة المعاصرين أن موضوع علم النحو البحث في بنية الكلمة وشكل أواخرها وإذن فعانى الجمل ومفهوم التراكييب اللغوية ، والصلة بين أجزاء الجملة الواحدة وما يمكن أن يراد منها ، كل ذلك لا يدخل ضمن نطاق الدراسة

النحوية وفق ماسار عليه العلماء بعد أن شققوا المعارف اللغوية وخصصوا لكل ميدان من ميادينها بحثا خاصا وعلما مستقلا . ومن هنا يظهر الفرق بين الأبحاث اللغوية في كتاب سيوبه وبين ماتعارف عليه العلماء في العصور المتأخرة بعد أن انفصلت هذه العلوم اللغوية بعضها عن بعض واستقل كل علم منها بموضوع خاص .

ولقد وجد علماء البلاغة في هذا الباب نفسه مادة قيمة لدراساتهم البلاغية ولأبحاثهم في هذا العلم . وهامو ذا ابن سنان الحفاجي يستغل مادة هذا الباب في كتابه سر (١) الفصاحة ، وهو من الأبحاث البلاغية الخالصة ، فيبين صلة اللفظ بالمعنى ، ثم يتناول مفهوم المعاني من حيث الصدق والكذب والاستحالة والأمكان .

ويقول سيوبه أيضا في الباب الثاني والأربعين من الجزء الأول :

« هذا باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام وللإيجاز والاختصار » فن ذلك أن تقول على قول السائل كم صيدَ عليه ، وكم غيرُ ظرف لما ذكرت لك في الاتساع والإيجاز فتقول صيدَ عليه يومان وإنما المعنى صيدَ عليه الوحشُ في يومين ولكنه اتسع واختصر ...

[ثم يضي هنا سيوبه في ضرب الأمثلة العديدة وشرحها على هذا النمط ليشرح وجهة نظره في أمثال هذا التركيب حتى يقول] ، ومن ذلك أن يقول كم ضربَ به فتقول ضرب به ضربتان وضرب به ضرب كثير ، ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى (وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْبَعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا) ، إنما يريد أهل القرية فاختصر وعمل التعلُّق في القرية كما كان عاملا في الأهل لو كان ها هنا ، ومثله (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) وإنما المعنى بل مكرهم في الليل والنهار وقال تعالى (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) إنما هو ولكن البرُّ من آمن بالله ، ومثله في الاتساع قوله عز وجل (ومثل

(١) سر الفصاحة ، ص ٢٢٧

الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء فلم يُشبهوا بما ينعق
 وإنما شُبهوا بالمنعوق به وإنما المعنى مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناقع
 والمنعوق به الذى لا يسمع ، ولكنه جاء على سعة الكلام والابحاز لعلم المخاطب
 بالمعنى ، ومثل ذلك من كلامهم بنو فلان يطؤون الطريق وإنما يطؤون أهل
 الطريق الخ ۞

وليس من الصعب أن يلاحظ القارىء هنا أيضا الاتجاه الخاص فى هذا
 الباب ، فالمشكلة التى تتمثل أمام سيويه هنا ليست مشكلة بنية الكلمات ،
 ولا مشكلة ما يعترى أواخرها من الحركات المختلفة ، وإنما هى مشكلة حذف
 بعض الكلمات من التراكيب اللغوية اختصارا فى الكلام واكتفاء بدلالة البعض
 الآخر عليها ، وهذا ضرب من ضروب الأساليب البلاغية ، وميدان من تلك
 الميادين التى تتجلى فيها عبقرية اللغة ، ويتضح من خلالها لون من ألوان فلسفتها
 ومن أجل ذلك قد أصبح هذا البحث من كتاب سيويه فيما بعد مصدرا هاما
 من مصادر عبد القاهر الجرجاني فاستغله استغلالا واسعا فى كتابه أسرار (١)
 البلاغة .

ولم يكف الجرجاني بفهم هذا البحث ليكتف عن المجاز فى اللغة ويشرح
 طرق استعماله المختلفة ، بل إنه أخذ كثيرا من نفس الشواهد التى ذكرها
 سيويه ، وجمعتها بنصها ليبين بواسطتها أنواع المجاز ، ويصل من وراء ذلك
 إلى سر من أسرار البلاغة فى القول .

وننتقل الآن إلى باب آخر من أبواب كتاب سيويه ، وهو الباب الرابع
 والبعون من الجزء الأول أيضا حيث يقول :

« هذا باب ذكر معنى لبيك وسعديك وما اشتقا منه » - وإنما ذكر

(١) انظر أسرار البلاغة ٥ فصل فى الحذف والزيادة وهل هما من المجاز أم لا ،
 ص ٣٦٢ - ٣٦٨ ؛ طبعة ثالثة بمطبعة الحلبي مع تعليق الأستاذ محمد رشيد رضا ؛ ثم اقرأ أيضا
 الفصول الأربعة السابقة لهذا الفصل فى نفس الطبعة من ص ٣١٦ إلى ٣٦٢

لِيُبَيِّنَ لَكَ وَجْهَ نَصْبِهِ كَمَا ذَكَرَ مَعْنَى سَبْحَانَ . حدثنا أبو الخطاب (١) أنه يقال للرجل المداوم على الشيء لا يفارقه ، ولا يقلع عنه قد ألب فلان على كذا وكذا ويقال قد أسعد فلان فلانا على أمره وساعده والإلباب والمساعدة ذنوب ومتابعه إذا ألب على الشيء فهو لا يفارقه وإذا أسعده فقد تابعه فكأنه إذا قال الرجل للرجل يا فلان فقال ليبيك وسعديك فقد قال قريبا منك ومتابعة لك فهذا تمثيل وإن كان لا يستعمل في الكلام كما كان راءة الله تمثيلا لسبحان الله ولم يستعمل ، وكذلك إذا قال ليبيك وسعديك يعني بذلك الله عز وجل كأنه يقول أي رب لا أنأى عنك في شيء تأمرني به فاذا فعل ذلك فقد تقرب إلى الله بهواه وأما قوله وسعديك فكأنه يقول أنا متابع أمرك وأولياءك غير مخالف فاذا فعل ذلك فقد تابع وأطاع وطاوع ... » وهكذا يمضي سيبويه في عرض مجموعة من الأمثلة شارحا لها ، ومعللا لصيغها ، ومبينا وجهة نظره فيها . والقدر من النحو ، الذي يبدو في هذا الباب وفي نظر النحاة المتأخرين ، ضئيل جدا إذا ما قيس بشرح التراكيب اللغوية والتحليل الدقيق لها . على أننا حين نتمعن النظر فيما تناوله سيبويه من البحث اللغوي خلال هذا الباب وحده نجد أن المؤلف ينفذ إلى أعماق اللغة ويبين فلسفة التراكيب ، ومن أجل ذلك رأينا الثعالبي يقتبس من هذا الباب ومن أمثاله في الكتاب بعض الموضوعات ليؤلف منها مادة كتابيه : فقه اللغة ، وسر العربية ؛ كما رأينا المغوي الفيلسوف ابن جنى ، يعتمد على أمثال هذا البحث عند سيبويه ليخرج للناس أمثاله اللغوية الفلسفية ، وخصوصا ما جاء منها في كتابه « سر صناعة الأعراب » .

وهناك غير هذا وذاك أبواب أخرى في الكتاب تبين بوضوح إلى أي حد قد اعتمد عليها علماء الأصول ، والقراءات ، والعروض لكي يتخذوا منها بدورهم مادة لأبحاثهم الخاصة في هذه العلوم .

على أن هذا الكتاب ، كغيره من الكتب الأخرى ، لا يمكن أن يسلم من النقد ، كما لا يمكن أن تخلو من الهفوات ؛ بل لعله من أكثر الكتب تعرضا

(١) كلما ذكر سيبويه في كتابه هذه الكنية - حدثنا أبو الخطاب - يقصد الاخفش الأكبر وهو أحد الأخافسة الثلاثة المشهورين فهناك الأوسط والأصغر انظر بغية الوعاة ص ٤٣٦

للقند ؛ وهذا في نظرنا يعتبر دليلا غير مباشر على مكانة هذا الكتاب ومبلغ
باحظى به من عناية العلماء واهتمامهم . ومن الانصاف أن نقرر أن ماني هذا
الكتاب من هفوات ينبغي ألا ننظر إليها مجردة لنصدر أحكامنا عليها ؛
بل يجمل بنا أن نضعها بجانب ما هنالك من حسنات ليكون الحكم صادقا نزيها .

نقدوه من ناحية الشكل كما نقدوه من ناحية الموضوع ؛ فقالوا
إن الكتاب ليس من عمل سيوييه وحده وأن هناك ما يزيد على الأربعين
عاما قد اشتركوا في وضعه ، بل قد ذهب بعضهم إلى حد المغالاة
فقال إن مجهود سيوييه في هذا الكتاب يعتبر أقل من مجهود أى شخص آخر ؛
وقالوا كذلك إن الكتاب محتوى على كثير من الخلط وسوء الترتيب ،
والذى يعيننا من هذين الشقين من النقد إنما هو الشق الثاني ؛ ويبدو
أن الدافع إليه هو أن النقاد حينما حرروا آراءهم في هذا قد نسوا أو تناسوا
أن هذا الكتاب يعتبر أول موسوعة عربية تجمع المعارف اللغوية في شتى
نواحيها محاولة من حين إلى آخر أن تشرح ما غمض ، وتبين ما استغلق ،
وتعلل ما دق ، وتحلل ما تعقد ؛ وجل ذلك في رأينا من عمل شخص
واحد ، هو سيوييه ؛ وأما ما يمكن أن ينسب إلى الآخرين من العلماء
في هذا العمل الضخم فهو ثانوى ضئيل لا يعدو أن يكون إضافات بسيطة
قصدها نسبة بعض الشواهد الشعرية إلى أمحاجها ؛ على أن سيوييه نفسه
قد تكفل بذكر بعضها (١) ، كما تولى بنفسه أيضا إضافة الآراء النحوية واللغوية
إلى شيوخه من العلماء السابقين في وضوح وبأمانة علمية تشبه الأمانة
الدقيقة عند رواة الحديث .

ثم نقدوه من ناحية صعوبة التراكيب ، وغرابة المصطلحات ، وتعقيد
المعاني ، والمبالغة أحيانا في الاسترمال ؛ ولكن فأت هؤلاء النقاد أن اللغة

(١) يأتي الاستاذ المستشرق - يوهان نك - إلا أن يقرر : « فقد ثبت لدينا بصورة أكيدة
أن سيوييه ساق جميع شواهده دون تسمية الشعراء » ص ٥٢ من كتابه - العريه - ترجمة الدكتور
عبد الحليم النجار ؛ على أن هذا التأكيد من جانب - يوهان نك - ليس من السهل أن نسلم له به
إذ أننا لم نجد في المراجع العربية كلها ما يثبت ذلك صراحة ؛ ولكن ما هنالك حدس واستنتاج
قد يوصل إلى الحقيقة وقد يجانبها .

في تطور مستمر ، وأن لغة عصر تختلف ، الى حد ما ، عن لغة عصر آخر ، فهناك كلمات نحيما وأخرى تموت . كما أن هناك اصطلاحات يقدر لها البقاء فتنتشر ، وأخرى لا تكاد تتجاوز العصر الذي نشأت فيه . وكان ينبغي على هؤلاء النقاد أن يذكروا الفرق الزمني بيننا وبين صاحب الكتاب ، فهناك الف ومائتا سنة [مات سيويه على أرجح الآراء في سنة ١٨٠ هـ] وليس ذلك بالشئ القليل .

وبعد ، فهذا هو كتاب سيويه ، وذلك هو الدور الذي قام به في شتى نواحي الثقافة العربية المختلفة ، وتلك هي المكانة التي وصل إليها في تقدير العلماء بالنسبة لمادته ومدى ما يحققه للدارسين من نفع في الأبحاث اللغوية .

وإذا كان هذا هو شأن كتاب سيويه فخليق بنا الآن أن نتجه إليه ، وأن نعمل جاهدين على إحيائه ، فندرسه من جديد ، لا كما درسه الأوائل ، بل وفق ما تتبعه مناهج البحث العلمي الحديث في الدراسات اللغوية مستخدمين في ذلك معارفنا باللغات الأجنبية وما دار حولها من دراسات وأبحاث ؛ فهو أجل مصدر نستطيع أن نعرف بواسطته طائفة عظيمة من لهجات العرب المختلفة ، التي أعملها علماء اللغة ، مكتفين بلهجة قريش ليقيموا عليها دراساتهم ؛ كما أنه يعتبر أيضا أجل مصدر نستطيع أن نعرف بواسطته نحو الخليل بن أحمد ، ونحو يونس بن حبيب ، ونحو أمثالهما من العلماء السابقين الذين لم يتركوا مؤلفا يتحدث عنهم ، ويفصح عن وجهة نظرهم ، وبين أسسهم التي أقاموا عليها آراءهم النحوية .

وهناك غير هذا وذلك موضوعات متعددة أخرى يمكن بحثها ودراستها في محتويات هذا الكتاب . ونحن إذ نصنع ذلك نحقق كسبا لمعارفنا ، وإحياء لتراثنا ، وتجاوبا صادقا مع هذه النهضة التي نحيها ، والتي بدأنا ننعم بثمارها ؛ تلك النهضة التي شملت الكثير من نواحي الحياة الاجتماعية وأخذت أصدائها تتردد في جميع أنحاء الدنيا .

إننا إذ نصنع ذلك نستطيع أيضا أن نقضى على تلك الامطورة القائلة بأن الأبحاث اللغوية التي سبقت عصر سيويه قد ضاعت وليس هناك من سبيل الى معرفتها ، كما نستطيع أيضا أن نحجي ذكرى أسلافنا ونكرمهم ، وفي تكريمهم مجد لنا وعزة لتراثنا .